



موقع فضيلة الشيخ  
د. محمد إسماعيل المقدم



شرح كتاب

# الدَّاءُ وَالذَّوَاءُ

لفضيلة الشيخ الدكتور

مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَقْدُمِ

وهذا أبو الدرداء، هؤلاء هم أسوتنا وهؤلاء هم قدوتنا وما أحوجنا إلى تكرار هذه المفاهيم و إيرادها على قلوبنا بين الوقت والآخر، لأننا بلا شك نتأثر بهذه الفتن وبهذا الجو المسموم وبهذا الحملات التي يشنها أعداء الإسلام ليل نهار على المسلمين، وكأنما لم نُخلق إلا لأجل الدنيا

ويوم حتى ما يتكلم عن الإسلام يحاولوا أن يخضعوا الإسلام لمقاصدهم الدنيوية، فيكون مهمهم أن الإسلام دين أنشأ حضارة وفنون وعمارة وأجهزة حديثة والمسلمون اكتشفوا كذا وكذا وكذا ويتفاخرون الكفار بما هم متفوقون عنا الآن فيه، والكفار ليسوا محتاجين الى هذا الآن، محتاجون إلى الشيء الذي يفتقدونه إلى الإيمان إلى التوحيد

مُهْمًا نَفْسَ لَهُمْ سَيَكُونُونَ أَقْوَى مِنَّا سَوَاءً فِي لَعِبِ الْكُرَةِ سَوَاءً فِي الْأَجْهَزَةِ الْحَدِيثَةِ سَوَاءً فِي التَّقَدُّمِ التَّقْنِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَظَاهِرِ الدُّنْيَا لَكِنَّ الْقَوْمَ فِي عَفْلَةٍ وَنَحْنُ مَا بَعَثَنَا اللَّهُ كَي نُنَافِسَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي وَسَائِلِ الرَّفَاهِيَةِ وَالرَّاحَةِ.

وَأِنَّمَا كَمَا قَالَ الرَّبِيعِيُّ ابْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ : **اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَمِنْ جُورِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْ ضَيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .** هَذَا هُوَ غَايَةُ بَعَثَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهَا أُمَّةٌ صَاحِبَةٌ رِسَالَةٍ لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ حَتَّى تُقِيمَ عَلَيْهِمْ حُجَّةً اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَرْجِعَ دَائِمًا هَذِهِ حَتَّى نُصَحَّحَ مَا يُصِيبُنَا مِنْ رَشَاشِ هَذِهِ النَّجَاسَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَاللُّوْثَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تُحَرِّفُنَا عَنِ الْغَرَضِ وَالْمَقْصِدِ الَّذِي هُوَ الْآخِرَةُ.

فهؤلاء قدوتنا واسوتنا الصحابة -رضي الله تبارك وتعالى- عنهم  
خير خير أمة أخرجت الناس رضي الله عنهم أجمعين، وهذا أبو  
الدرداء رضي الله عنه خاف على نفسه يوم القيامة أن يقال لي يا أبا  
الدرداء قد علمت فكيف علمت فيما علمت؟

وَكَانَ يَقُولُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ لِأَقْوَنَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِمَا أَكَلْتُمْ طَعَامًا عَلَى  
شَهْوَةٍ وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى شَهْوَةٍ وَلَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا تَسْتَظِلُّونَ فِيهِ  
وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعِيدِ تَضْرِبُونَ صُدُورَكُمْ وَتَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ!  
وَلَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعَصَّدُ ثُمَّ تُأْكَلُ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ أَسْفَلَ عَيْنَيْهِ مِثْلُ  
الشَّرَاكِ الْبَالِي مِنْ كَثْرَةِ الدُّمُوعِ وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:  
"يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعَصَّدُ، وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَخْلُقْ خَوْفًا مِنَ الْحِسَابِ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وَعَرَضَ عَلَى أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّفَقَةَ وَالْعَطَاءَ  
وَالْمَالَ فَقَالَ: "عِنْدَنَا عَنَزٌ نَحْلِبُهَا وَحُمُرٌ نَنْقُلُ عَلَيْهَا حِمَارًا نَنْقُلُ عَلَيْهِ  
وَعَنَزٌ نَحْلِبُهَا وَمَحَرَّرٌ يَخْدِمُنَا وَفَضْلٌ عَبَاءَةٌ وَاِنِّي أَخَافُ الْحِسَابُ  
فِيهَا" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية: { أَمْ  
حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الجاثية: 21]

سواء محياهم ومماتهم فجعل يرددتها ويبكي حتى أصبح ولا  
يتجاوزها إلى غيرها، ضل فقط يتلو طول الليل يتلو هذه الآية  
ويكررها { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } يعني  
ما تعلق بآيات الرجاء وما قال الله الغفور الرحيم، وما خدع نفسه  
وغالط نفسه عن الأسباب وإنما ربط الأمر بالأسباب، ومن شدة

تأمله وتدبره في الآية بقي طول الليل يتأمل ويتدبر ويبكي حتى أصبح بآية واحدة فقط

لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أن هذا لا يليق بالله عز وجل أن يسوي بين من أنفق عمره في طاعة، ويتصدق ويصوم ويصلي ويذكر الله تبارك وتعالى ويجاهد في سبيل الله

ومع آخرين أنفقوا عمرهم في المعاصي و اجترحوا السيئات وباردوا الله بالمعاصي بانتهاك الحُرَمَاتِ.

فهل تتوقع ؟ يقول الله تبارك هل تحسبون أن هذا مثل هذا؟ هل هما سواء؟ فيقول ساء ما يحكمون كيف تتصورون؟ {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} وَقَالَ هُنَا {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ مَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}

آية الْجَائِيَةِ يُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ مِنْكَاتِ الْعَابِدِينَ! مِنْكَاتِ الْعَابِدِينَ لِمَاذَا؟ كَانِ الْعَابِدُونَ يَعْنِي يَتْلُونَهَا وَيَخَافُونَ مِنْهَا جِدًّا إِذَا تَلَوْهَا وَيَبْكُونَ أَشَدَّ الْبُكَاءِ إِذَا تَلَوْهَا لِمَاذَا؟ لِأَنَّهَا آيَةٌ مُحْكَمَةٌ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً.

فكان السلف الصالح والعباد من السلف كانوا يأكلون بعمومها يعني هذه ليست خاصة بالكفار {فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا} لَا

**يَسْتَوُونَ** { [السجدة:18]

لكن تشمل ايضاً العُصاة من المسلمين مع المتقين والصالحين {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ مَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} هل يستوون في الحياة؟ هل يستوون عند الموت؟ هل يستوون بعد ذلك؟ لا يمكن! {ساء ما يحكمون} فيُعيب الله على من يظن مثل ذلك الظن.

قال بشير بت عند الربيع بن قسيم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية فمكث ليلته حتى أصبح لم يعدها ببكاء شديد ظل قالت لها طوال الليل وهو يبكي بكاءً شديداً ولم يتجاوزها إلى ما بعدها.

وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيراً ما رأيت الفضيل ابن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول بيت شعري من أي الفريقين أنت؟ بيت شعري من أي الفريقين أنت؟ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ ام ممن اجترحوا السيئات؟

فقال أبو عبيدة عامر بن الجراح -رضي الله عنه- أبو عبيدة بن الجراح أيضا من المبشرين بالجنة، فماذا يقول أبو عبيدة؟ يقول: وَدِدْتُ أَنِّي كَبَشْتُ فَذُبَّحْنِي أَهْلِي وَأَكَلُوا لَحْمِي وَحَثُّوا مَرْقِيَّ أَبُو عبيدة بن الجراح يَتَمَنَّى أَنَّهُ مَا كَانَ إِنْسَانًا مُكَلَّفًا يَا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ مَكْلُ خَوْفًا مِنْ الْحِسَابِ، خَوْفًا مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ أَمَامَ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنِّي كَبَشْتُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ كَبَشًا يَعْنِي فَذُبَّحْنِي أَهْلِي وَأَكَلُوا لَحْمِي وَحَثُّوا مَرْقِيَّ.

ثم يقول ابن القيم: وهذا باب يطول تتبعه وهنا نتحسر أشد الحسرة أن ابن القيم لم يطل تتبع هذا الباب.

كنا نود أن يطيل النفس أكثر وأكثر ويتحيفنا بأحوال السلف -رضي الله تبارك وتعالى- عنهم في هذا الباب فما في شك أن هذا يعني دواء للقلوب؛ لأنه اعتذر عن الإطالة وقال وهذا باب يطول تتبعه -رحمه الله تعالى-.

قال البخاري في صحيحه باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر (ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفًا، أَوْ قَبْلَكُمْ، آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا - يَعْنِي أَعْطَاهُ - قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَرِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا - فَسَرَّهَا قَتَادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ - وَإِنْ يَقْدَمُ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبُهُ، فَاَنْظُرُوا فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا

صِرْتُ فَحَمًّا فَاسْحَقُونِي - أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي - ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَأَخَذَ مَوَائِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ - وَرَبِّي - ففَعَلُوا، فَقَالَ اللَّهُ: كُنْ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ - أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ - فَمَا تَلَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَحَدَّثْتُ أَبَا عُثْمَانَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ سَلْمَانَ، غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ: فَأَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ أَوْ كَمَا حَدَّثَ<sup>1</sup>.

وقال إبراهيم التيمي ما عرفت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا، وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم من أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل، يخاف أن يكون من المنافقين، ويذكر عن الحسن قال: "ما خافه إلا مؤمن وما أمنه إلا منافق".

وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول لحذيفة: "أنشدك الله هل سماني لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-" يعني في المنافقين؟ فيقول لا، ولا أزكي بعدك أحدًا.

يقول ابن القيم: فَسَمِعْتُ شَيْخَنَا شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: لَيْسَ مُرَادَهُ أَنِّي لَا أُبْرِي غَيْرَكَ مِنَ النَّفَاقِ لَيْسَ بَرَادُ حَذِيفَةَ لِقَوْلِهِ لَا يَعْنِي لَيْسَ إِسْمُكَ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِهِمْ وَلَكِنْ بَعْدَكَ أَحَدًا بَلْ الْمُرَادُ لَا افْتَحَ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ فَكُلُّ مَنْ سَأَلَنِي هَلْ سَمَانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَازْكِيهِ!

لماذا؟ لأنه ربما يأتي واحد ويكون فعلاً ممن سمّاه الرسول -عليه الصلاة والسلام- له في المنافقين، فيترتب على ذلك أنه يسوءه بأن يقول له: نعم أنت من المنافقين! وأخبرني الرسول باسمك فهذا من السر الذي استحفظه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليه.

ويقول ابن القيم : هذا قريب من قول النبي صلى الله عليه وسلم  
للذي سأله أن يدعو الله له أن يكون من السبعين ألفاً من أهل الجنة  
الذين يدخلون من غير حساب.

(لَا رُفِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَذَكَرْتُهُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا  
ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ،  
فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ،  
حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا  
مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمَلَأُ الْأَفْقَ، ثُمَّ قِيلَ  
لِي: انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأَفْقَ،  
قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ. ثُمَّ  
دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَقَاصَ الْقَوْمِ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ  
وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَخُنُّ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّا  
وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ، فَقَالَ: هُمْ  
الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ، فَقَالَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ،  
فَقَامَ آخَرَ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ<sup>2</sup>..

قام عكاشة ابن محصن -رضي الله عنه- فقال: يا رسول الله ادع الله  
أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، فقام رجل آخر، فيفتح الباب  
ويقول الواحد بعد الثاني يقول: هل انا منهم؟ هل انا منهم؟ من من  
المؤمنين مُستغني عن جواب هذا السؤال! كل واحد يريد أن يطمئن  
على نفسه!

لما قام واحد بعد عكاشة رضي الله عنه وقال هل انا منهم؟ فادعوا  
الله أن اكون منهم فقال: سبقك بها عكاشة، ليست عكاشة كما نقولها  
-عكاشة-.

الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري<sup>2</sup>  
[الصفحة أو الرقم: 5705 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح] [وقع في بعض النسخ (قول البخاري حديث الشعبي مرسل) ويعني عن عمران  
التخريج : أخرجه مسلم (220) باختلاف يسير

يقول: ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك من مَنْ دعى من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الإمساك أولى، ثم قال ابن القيم -رحمه الله- والله اعلم.